٥ – في التربية

الدوافع الفطرية الخاصة

– ١ –

أدّت أحداث سياسية واجتماعية إلى اتجاه نواحي التربية في مصر اتجاهاً أهمل الدوافع الفطرية الحية، واقتصر على الناحية الحافظية الميتة . فقد تجمعت رواسب الفكر العربي في الأزهر ، واستمرّ معقل التراث العربي حتى أتت الحملة الفرنسية إلى مصر وأسست المجمع العلمي في أغسطس ١٧٩٨ ، ونصت المادة الثامنة منه على السعي إلى نشر العلوم والمعارف الحديثة في اتجاهات أربعة ،هي الرياضيات والطبيعيات ، والاقتصاد السياسي والآداب والفنون ، ووضع جائزتين كل عامين لكتابين أحدهما عن حضارة مصر ، والثاني عن الصناعة فيها ، وجمع مكتبة حوت كتباً أوربية وإسلامية ، وانتهى عهد المجمع بعد خروج الفرنسيين من مصر ، حتى اعتلى محمد علي باشا أريكة مصر وعقد أول مجلس للمعارف ١٨٣٦ ، وأنشأ مدارس مصرية على نمط فرنسي ، ودرس فيها معلمون أجانب حتى عادت البعثات المصرية تتحمل أعباءه . وأغلق عباس الأول معظم المدارس ، وقلل البعثات ، سيما ما كان منها نحو فرنسا ، ثم ألغى سعيد نظارة المعارف ، وجعلها إدارة ملحقة بدائرته الخاصة . حتى أتى اسماعيل فأعاد البعثات وفتح مدارس البنين والبنات ، وعُني بالتعليم ،ثم ارتبكت أمور مصر المالية وعزل الخديوي ، وتولى الخديوي توفيق ، وحدثت الثورة العرابية ١٨٨١ وتلاها الاحتلال الانجليزي فقضى على التعليم القومي ، وما كان يحضر من تراث قديم يسعى للظهور ، وتراث غربي حديث يسعى للبلوغ بالنهضة غايتها المنشودة .

وعند أيام الحملة الفرنسية صارت مصر مسرحاً للتنافس بين فرنسا وانجلترا ، على أن فرنسا أدركت أن العقلية المصرية لم تستجب لحضارتها بحد السيف ، فعمت – بعد خروج

الحملة إلى نشرها بالوسائل العلمية ، ولاقت من محمد علي باشا ترحاباً ، فقد استعان بهم ذلك العاهل العظيم على تنظيم شؤون ملكه ريثما تتفوّق العناصر المصرية ، كما حدث بعد ذلك بقليل . وواصلت فرنسا سعيها لدى خلفاء محمد علي ، وبذلت المال وأرسلت علماء مثل لبوبلد چومبليان ، وفريز دريان ، وماريت ، وماسبرو ، للتنقيب والكشف في مصر ، واتخذت من الميدان الحرّ وسيلة لنشر ثقافتها ، فأرسلت الإرساليات وأنشأت المدارس الأهلية ، فتأسست أول مدرسة فرنسية عام ١٨٤٤ ، وأول مدارس الفرير ١٨٤٥ ، ووهبتهم الدولة المصرية أرضاً بخرنفش بمصر ، وأنشأت جمعية راهبات أراعي الصالح أول مدرسة للبنات عام ١٨٤٦ ، وراهبات الفرانسيسكان أول مدرسة عام ١٨٥٩ ، وأخرى بيولاق عام ١٨٦٨ ، وثالثة بالمنصورة عام ١٨٧٢ . ولم تنج وهي تؤدي رسالتها من الدوافع التبشيرية . وبلغت هذه المدارس شأواً بعيداً في عهد اسماعيل ، بعد أن أتت ببنات عفانية أنشأها المسيو دوفين ، وافتتحت مدارس الليسيه بالقاهرة والاسكندرية ، وآخرها بمصر الجديدة عام ١٩٣٨ ، وقد حضر هربو ، الذي شهد حفلتها الافتتاحية ، أهدافها ، من احترام العقائد ، ونشر الثقافة الفرنسية ، والدفاع عن حرية الشعوب ، وتسهيل سبل التعليم للمصريين . وقد أنتجت تلاميذ لها ، برعوا في لغتها وثقافتها ، ولم يتنكروا للثقافة القومية المصرية الاسلامية إتقانهم للثقافة الفرنسية ، حتى أشرفت الحكومة المصرية على تدريس اللغة العربية بها

ويرجع ظهور بوادر النفوذ الانجليزي بمصر بعد الحملة الفرنسية وقبل ظهور محمد علي في السعي لاكتساب رضى المابلنك بعلمايا في مصر ، كما حدث مع الآلفي بك ، والسعي لدى الباب العالي كما فعل سباستياني ، سعياً فشل بظهور محمدعلي ، وهزيمة حملة فريزر عام ١٨٠٧ فحذت انجلترا بعد تذر حذو فرنسا ، في نشر ثقافتها بالوسائل العلمية ردحاً من الزمن . فأنشأت إرسالية برستانتية اسكتلندية إلى الاسكندرية عام ١٨٤٠ ، ثم بعثة مس وتلي كريمة أسقف دبلن عام ١٨٦٣ ، وصمت على تعليم الفتاة ، ونالت إقبالاً بفضل تشجيع الخديوي اسماعيل . وكذلك سعت أمريكا إلى إرسال بعثة لها عام ١٨٥٥ نالت عطف سعيد ، وقد ازداد عددها وانتشرت مدارسها في العواصم ، فبلغت عام ١٩٣٢ اثنين وأربعين مدرسة . على أن النفوذ

الانجليزي الاستعماري بدأ بشراء الانجليز لأسهم قناة السويس عام ١٨٨١ ، وقيام الثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، ووقعة التل الكبير والاحتلال في ذلك العام ، فحلت انجلترا بمصر ، وأطلقت يدها فيها بعد اتفاقها مع فرنسا عام ١٩٠٤ . وأتى الى مصر مستشارون استعماريون وجهوا همهم للقضاء على الثقافة المصرية القومية ، والثقافة الفرنسية ، والسعي الى إحلال الثقافة الانجليزية مكانها فسعى كرومر ودنلوب الى تحقيق هذا الهدف ، وقد نقلا في تحقيقه فعلاً أقره جورج يتج ، صاحب « مصر » ، والسير ثالنتين شيرول صاحب « المسألة المصرية » ، ولويد جورج صاحب « مصر منذ كرومر » ، وأدت القواعد الضيقة الأفق التي وضعها دنلوب للتعليم ما بين ١٩٠٦ — ١٩١٩ ، من تعليم الفتاة ، ومحو الأمية ، وتأهيل الشبان للوظائف ، وإضعاف الفرنسية والعربية ، ومحاولة وضع العامية مكانها ، إلى تبرم المعلمين الانجليز الذين وفدوا إلى مصر للتدريس ، وإلى ظهور رد فعل شديد في مصر

كانت نسبة التعليم عام ١٨٨٣ ثلاثة في الألف ، وعام ١٩٠٧ ثلاثة في الألف ، وكانت نسبة المتعلمين تعليماً أولياً عام ١٨٨٣ (١٦٣) في الألف ، وعام ١٩٠٧ ثمانية في الألف ، ونجم من ذلك ما كان متوقعاً ، فقد انحط شأن الأدب ، ومات النبوغ ، وانعدم التشجيع والتجديد ، وانقصر الأدب على الصحافة ، وما تستدعي من تأليف عاجل قصير ، خضع للكسب المادي وانقصر التعليم ، الذي هدف إلى إخراج موظفين يحسنون الطاعة ، ويتقنون كالآلة ، ويحتاجون الى الارشاد الدائم ، على الاستذكار والاستظهار ، والاملاء والتدوين ، دون بذل لنشاط ذاتي ، أو فاعلية وتفكير فردي ، أو عمل شخصي . ولا عجب أن يأتي انجلترا الأجانب في التربية بعد عشر سنوات ، مثل مان وكلابارید ، فيجدون مرتعاً للعيوب ، وعيثاً من العجز . ولا عجب أن نجد بيروقراطية تدير الأداة الحكومية ، لا تخلو من تواكل وتهاون ، وسآمة في التنفيذ . ولا عجب أن تذكر الطامات من ضعف في اللغة العربية والفرنسية والانجليزية ، ولا عجب أن نجد بالأدب بقاء الوصولية القديمة في الشعر وغيره .

لقد فقد الفكر المصري قواه الابتكارية الخلقية الدافعة ، وانقصر على الواعية الحافظة ، حتى تحرر وأوصل البعثات ، وأعاد نظم التعليم ، وسعى سعياً حثيثاً لاعادة الصلات بينه وبين قديمه القومي . وقد بدأ ذلك بظهور ثورات سياسية تنشد الاستقلال ، على يد مصطفى كامل

ومحمد فريد وسعد زغلول ، وثورات دينية واجتماعية نادى بها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وقاسم أمين ، تلت ذلك ثورة فكرية أذكاها لطفي السيد باشا ومحمد حسين هيكل باشا والدكتور طه حسين بك . فأحدثت في الفكر المصري انقلاباً أقرب الى الثورة منه إلى التطوُّر . وكان آخر هذه الثورات إصلاح نظم التعليم ، وهي ثورة جدّ حديثة ، ما زلنا نعيش في طياتها . ونسعى إلى إعادة تنظيم مراحله ، ومناهجه ، وأساليب التربية فيه . من النواحي الفنية ، وعلاج مشاكله الاجتماعية ، من تيسير سبيل التعليم المجاني في كل المراحل ، والسعي الرقي بالشعب إلى مستوى يليق بمصر في الزمن الحديث ، رغم ما يعترض ذلك من صعوبات تخلفت عن الماضي في الادارة والمناهج والروح .

ذكرنا في المقال السابق[1] كيف تهب الحياة الانسان قدرتين ليستجيب بهما لدوافعي البيئة ثم عرجنا على مظهر ذلك في مصر اليوم . ونعود فنذكر ان الدوافع الهورمية والاحتفاظية تتشكل في أساليب فطرية خاصة ، تكررت في حياة الجنس فصارت غريزية ، تظهر دون تعلم أو تجريب . فيسميها علماء النفس باستعداد عصبي فطري موروث ، يدفع الكائن الحي نحو سلوك خاص . وان هذه الدوافع الفطرية هي أساس المشاكل التعليمية .

واذا تصوّرنا الحياة هجرة تنقسم إلى فرعين ، هورم وميم ، أو دافع حيوي ودافع احتفاظي ، يتعاونان على حفظ الفرد والجنس ، ثم ينقسم كل منهما أثناء تطور الحياة فتزداد الفروع وتتصل ويزيد تعقيدها ، أمكننا إدراك بعض السبب في تنوع تقسيم الدوافع الفطرية ، تبعاً لدرجة تخصصها . فيقسمها مكدوجل إلى أربعة عشر غريزة ، فهرت بدائية في صور الحياة الأولى ، ثم دارت حولها النظم الاجتماعية ومظاهرها الحديثة . فبدأت غريزة الوالدية بالعطف على الوليد ، ثم ظهرت في محيط الأسرة فالمجتمع ، وصارت منتاح ناحية كبيرة من الاخلاق والدين ، من مساعدة العاجز ، ووجود القانون لمعاقبة المجرم . وبدأت غريزة المقاتلة بالدفاع عن النفس والوليد ، ثم الأسرة والوطن ، وبدأت غريزة الاستطلاع بصورة بدائية ، ثم صارت مظهراً للعلوم والفنون ومظاهر الفكر الانساني . ثم ظهرت غريزة البحث عن الطعام لحفظ الذات فالأسرة فالمجتمع . وكذلك غريزة التغذي والهرب والغريزة الاجتماعية والسيطرة والخضوع والغريزة الجنسية (بمعنى واسع) وغريزة التملك ، وغريزة الحل والتركيب

(١) نشر بمقتطف مارس سنة ١٩٤٨

والاستغلال للتملك . وأتى تقسيم ثورندايك أكثر تفصيلاً ، وقصره دروبد على الغريزة الجنسية ، ويجعل مكدوجل الغرائز ألواناً عاطفية متحدة بالانفعال ، يظهر بظهور الغريزة ، بينما رأى دريفر أن الانفعال لا يظهر إلا عندما يقف في سبيل الغريزة عائق . وقد تمسك مكدوجل بالانفعال ، واعتبره كامناً ، يظهر تبعاً لدرجة الاهتمام .

ومهما كان من شأن الاختلاف ، فهو سليم في جوهره ، تتخذ الدوافع الحيوية الأولى صوراً فطرية ، ولكي تثمر التربية ، وتصل بالفرد إلى غاية ما تتسع له ذاتيته ، لابدَّ أن تعمل مع نواة السلوك لا عكسه . فالطفل أقرب إلى السلوك الغريزي ولابدَّ من مخاطبته خلال غرائزه ، لا باعتباره رجلاً صغيراً . ولابدَّ من استغلال غرائز حب الاستطلاع والحل والتركيب وغيرها . وتوجه التربية السليمة الغرائز توجيهاً اجتماعياً نافعاً ، وتستبدل ما لا يستحب منها بغيره ولكل غريزة موسم ذهبي تبرز فيه بوضوح ، ففي سن الصبا تبرز الغريزة الاجتماعية وحب الاقتناء والجمع ، والانسان أعلى في مراتب التطور من الحيوان في الذكاء ، لذا توجه الغريزة الواحدة إلى اتجاهات كثيرة ، أنتجت فروع المعرفة الانسانية . والانفعال ركن هام في ميدان الجماليات ، من فنون الأدب والموسيقى والنحت والتصوير ، وخلاله يرتقي الذوق ويستقيم ، بالإيقاء والإستهواء والتدريب ، فيتحقق بذلك قول أفلاطون « التربية الحقيقية هي التي تجعلنا نحس اللذة والألم نحو الأمور الجمالية في الحياة »

واذا كان للغريزة مظاهر إدراكية فكرية ، ومظاهر انفعالية ، ومظاهر نزوعية ، فليس المظهر الادراكي لها بأقل شأناً من المظهر الانفعالي . فاستخراج المقاييس العامة للأشياء ، وتحليلها وتطبيلها ، وفقدها دون املاء أو فرض يساعد في تذوق مظاهر الحياة .

ويساعد النزوع على تحقيق الأهداف المثالية ، فمن يعوف الموسيقى يستطيع تذوق جميلها ، ويستطيع من يؤلف أن ينتقد فلا يستأثر الكاتب بانسياقه ويهبط إلى قارئه من عل . كذلك يفتح ميدان الابتداع في الرسم والتأليف . وفي المدرسة ميدان ظهور الموسيقي النابغ ، والكاتب الذكي ، والشاعر والفنان ، واذا ما نجحت المدرسة لأبنائنا لميدان الصالح ، وقلَّ ما في المناهج من حشو ، ولافى النابغ التغير من العطف والتشجيع ما يساعد عبقريته على النمو ، وذاتيته على البلوغ حدّ الكمال . وكم من مواهب تذبح أرواح لها في المدرسة من عيوب المناهج والمواد الدراسية وطرق التعليم ورسائل الإثارة والتفتيش وكم في المجتمع من عقبات مادية ومعنوية تحول دون ظهوره لو بزغ في مدرسته

(يتبع) محمود عامر شركت